

جبرا إبراهيم جبرا

منجزه الفني وآراؤه في التشكيل العربي

د. معتز عناد غزوان - كلية الفنون الجميلة / جامعة بغداد

الملخص:

يعدّ الفنان والناقد العربي جبرا إبراهيم جبرا احد أهم المفكرين العرب الذين برعوا في ميادين جمّة، تمثلت في الرسم والنقد التشكيلي والترجمة والرواية والقصة والنشر وغيرها من المجالات التي أبدع فيها. اشترك جبرا في أول معرض لجماعة بغداد للفن الحديث التي أسسها الفنان العراقي جواد سليم بداية خمسينيات القرن الماضي وكان جبرا إبراهيم جبرا احد أهم مؤسسيها. كما كتب جبرا العديد من المقالات والدراسات النقدية في الفن التشكيلي العربي، وألف العديد من الكتب المهمة في هذا الميدان. يشكل هذا البحث بمباحثه الأربعة عرضاً لأهم مراحل العملية الإبداعية لجبرا إبراهيم جبرا لاسيما في ميدان الفن التشكيلي والنقد الفني. إذ تألف البحث من ثلاثة مباحث، تضمن المبحث الأول دراسة مرجعيات جبرا إبراهيم جبرا الثقافية والفكرية وسيرته الذاتية الإبداعية، أما المبحث الثاني فقد تضمن دراسة المنجز الفني لجبرا إبراهيم جبرا ودراسة لأهم لوحاته الفنية ومميزاتها وأساليبها. أما المبحث الثالث فقد تضمن آراء جبرا إبراهيم جبرا في الفن التشكيلي العربي الحديث من خلال دراساته النقدية وآرائه الجمالية في الفن التشكيلي العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية: الفن / النقد التشكيلي / السريالية / التخطيطات / النحت / البورتريه.

Abstract

Although Jabra is better known for being a writer and an art critic, he shall always remain one of the pioneer Palestinian artists of the twentieth century. He contributed to the Iraqi art movement, and he was an active member of the Baghdad Modern Art Group, which was established in 1951 under the direction of the Iraqi Artist Jawad Saleem, in the early 1950's. He has written many essays and studies about the Arab Art movement. This paper consists of three parts, the first part focuses on the creative Biography of

Jabra Ibrahim Jabra and his cultural background. The second part focuses on the painting style of Jabra Ibrahim Jabra. The final part of this research is interested in the Arab art criticism about the writings of Jabra Ibrahim Jabra.

Keywords: Art, artistic criticism, Surrealism, Charts, Sculpture, Portraits.

أولاً- مرجعيات جبرا إبراهيم جبرا:

يعدّ الناقد والفنان والمترجم الراحل جبرا إبراهيم جبرا أحد أهم النقاد العرب المحدثين الذي تركوا بصماتهم في المشهد الثقافي العربي نظراً لما قدمه من إنجازات مهمة في هذا الميدان، تنوعت ما بين الرسم والنقد والترجمة. إن سيرة جبرا إبراهيم جبرا سيرة قلّ نظيرها في الثقافة العربية نظراً لما يمتلكه من شخصية متعددة المواهب الإبداعية التي تنقلت به من إنسان سلب منه وطنه مغادراً إياه إلى المنافي ليستقر في عاصمة الرشيد بغداد، ويقضي ما تبقى من شبابه وعمره الطويل العامر بالكمّ الثقافي الشامل. إنّ الحديث عن السيرة الذاتية ولاسيما لشخصية موهوبة ومتميزة كجبرا إبراهيم جبرا تستدعي الحديث عن السيرة الذاتية واشتراطاتها في تدوين لسيرته الطويلة التي كتبها على شكل نصوص نشرت ضمن كتابه الموسوم بـ "شارع الأميرات" الذي يقع في منطقة المنصور في جانب كرخ العاصمة العراقية بغداد، حيث كان يسكن هناك. ويرى النقاد والمتابعون لسيرة جبرا الثرية في معرض تحليل لتلك السيرة التي لا بدّ من أن تتطابق في المتلفظ السيرداتي في ثلاثة أنواع من الأنا:

1- أنا المؤلف الحقيقي: وهو الذي يقف وراء عمله بحكم وصف السيرة الذاتية.

2- أنا السارد: وهو المبتق من الحاضر.

3- أنا الكائن السيرداتي: وهو الذي يعود إلى الكائن السيردي.

إنّ البحث عن التطابق بين هذه الأركان الثلاثة في النص السيرداتي لا يخلو من بعض الإشكالات سواء كان ذلك على المستوى النظري، كأن يعتقد البعض أن التأكيد على ضرورة تحقق التطابق يسهّل إمكانية منح قاعدة نصية عامة للسيرة الذاتية، أم على مستوى التطبيق الذي يدور حول شكل الضمير النحوي المؤظف داخل النص السيرداتي⁽¹⁾.

ولد جبرا إبراهيم جبرا في مدينة بيت لحم الفلسطينية عام 1920، وينتمي إلى السريان الأرثوذكس، وقد بقي هناك حتى اندلاع الحرب العربية مع الكيان الصهيوني عام 1948، إذ شرّد العديد من الفلسطينيين جرّاء آثار تلك الحروب الدّامية التي أدّت إلى تقسيم فلسطين إلى منطقتين عربية ويهودية.

هاجر جبرا إبراهيم جبرا من بلاده إلى مستقرّه الاختياريّ في بغداد. ويشير عبد الرحمن منيف في مقدمته لسيرة جبرا الإبداعية إلى أنّ أهمّ مصادر غنى السيرة الذاتية: صدق الرواية، والتفاعل مع الآخر، وقيام العلاقات الإنسانية تبعاً لشروط الزمان والمكان، ولأنّها تكتب في الغالب بعد مدّة من وقوع الأحداث، فيجدد بها أن تتسم بالنزاهة، والقدرة على إصدار الأحكام بمعزل عن انفعال اللحظة، أو حساب الريح والخسارة. ويشير إلى أن جبرا إبراهيم جبرا في "شارع الأميرات" قدّم شهادة صادقة ونزيهة، إذ قال الكثير عما يعتلج في القلب والفكر، وقدّم نماذج جريئة، كما صوّر مرحلة كاملة بكلّ ما فيها من أفراح وأحزان وهزائم⁽²⁾. إنه السارد الجريء لتاريخ يتجاوز السبعة عقود من الكفاح والغربة بعيداً عن الوطن. لقد دوّن جبرا سيرته الغنية بشكلٍ يجعل من المكان لوعةً تراوده في السرد السيرذاتي الذي أراد أن يكشف عن مكنوناته وإرهاصات العذاب والغربة وانعكاساتها على منجزه أو نتاجه الكبير كماً ونوعاً. لقد كانت عذابات الغربة والحنين واضحة في معظم كتاباته ورواياته وقصصه، فلا يرد اسم القدس إلا وقد أثّرت شجونته، وعادت به إلى أيام صباه.

يتحدّث جبرا إبراهيم جبرا واصفاً طفولته وصباه في مدينة القدس من وجهة نظره الذاتية إذ يقول: "لقد سكنت في منخفض خارج السور تحت مشارف النبي داود، كان يعرف باسم (جورة العناب) وهو من الأحياء الأولى التي أخذت تنشأ خارج مدينة القدس، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد رأيت فيه تحولاً من سوقٍ للحيوانات تقام كلّ يوم جمعة، إلى منطقة صناعية نشأت فيها دكاكين الحدادين والنجارين والسباكين، وعملت أيام الصغر في إحدى دكاكينها صيفين متتاليين إبان العطلة المدرسية، لقاء قرشين ونصف القرش في اليوم في أوائل الثلاثينيات. وكان بيتنا غرفة واحدة من بنيان كبير طابقه الأرضي منخفض عن الطريق العام، ويتألف من حوش مربع مكشوف ينزل إليه بدرج، على جوانبه غرف، في

كل منها عائلة كاملة. ومن باب غرفتنا كنت أرى مئذنة النبي داود تطل علينا من شاهق⁽³⁾.
ينظر الشكلان: (1) و(2).

بقيت ذاكرة المكان لصيقة في ذهن جبرا إبراهيم جبرا حتى بعد أن توالى الأحداث المؤلمة التي تعاقبت على مدينته التي سكن فيها وعاش صباه هناك؛ مدينة القدس، التي كان يدرس فيها طالباً في الكلية العربية، جنوبيها. يقول: "قضيت سنتي الأخيرة في الكلية العربية، ولن أنسى منظر القدس عبر وادي الربابة، وهي في النهار مغمورة في غمام من البنفسج، وهي في الليل تتقد وتتألأأ"⁽⁴⁾. لقد كانت حياة جبرا إبراهيم جبرا حياةً غير مستقرّة لأسباب ارتبطت بالتحوّلات السياسية الكبيرة في تلك المنطقة التي أصبحت فيما بعد كقنبلة قابلة للانفجار في كل لحظة، تزامنت مع قيام الثورة الفلسطينية عام 1936، ومن ثمّة اندلاع الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، إذ قرر جبرا الطالب الطموح أن يدرس في الخارج. ويذكر تلك اللحظات العصبية في اتخاذ القرار نحو السفر في ظلّ تلك التحوّلات السياسية الصعبة، وما بين وداع الأسرة وألم الفراق. وعلى الرغم من تلك الظروف يشير جبرا إبراهيم جبرا إلى أنّ المسؤولين في دائرة المعارف في القدس، وبعد أيام قلائل، طمأنوه بأنّ البعثة ما تزال قائمة. إذ يقول: "كنت مستعداً للسفر، وتصورت القنابل وهي تنهمر كالمطر الماحق على المدن الإنكليزية والأوربية، ما جعل والديّ يصرّان على ضرورة رفضي للسفر إلى أن تنتهي الحرب، غير أنني لم أكن خائفاً، وأصررت على السفر وقلت في ولايات هذه الحرب المحتملة، ستكون حالي حال مئات الملايين من الناس، أنا لست أفضل منهم. وحدها أمني لم تقتنع بهذا المنطق، واستمرت في اعتراضها، وبكت، ولكنها حين وجدت أبي وأخوتي وجدتي كفّوا عن مقاومتي، رضيت مكرهَةً بما عزمتم عليه، وتوقفت عن البكاء"⁽⁵⁾. لقد أثار الموقف الدرامي هذا من فراق الأهل والأحبة ولاسيّما الأمّ، مظاهر الألم والحزن من جهة، والإحساس بعدم العودة من جهة أخرى، كما تبين تلك الصورة الناطقة من خلال حوار وسرد ذاتية جبرا إبراهيم جبرا القوية، بمحاولة امتلاكه للقوة في التغلب على مشاعر الضعف التي قد تجعله يتراجع عن قراره الذي شكّل فيما بعد بداية الانطلاق نحو الإبداع والنجاح. لقد واصل جبرا على الرغم من

الصعوبات في النقل والسفر عبر دول عديدة في نهاية المطاف إلى المملكة المتحدة وفي جامعة أكستر تحديداً، التي بقي يدرس فيها ما بين عام 1939-1940، ثم حصل على البكالوريوس في اللغة الإنكليزية من جامعة كامبردج عام 1943، فلما جستير في الأدب الإنكليزي من الجامعة نفسها في العام 1948. من هنا بدأ حب جبرا إبراهيم جبرا لشكسبير William (Shakespeare) ومسرحياته وأدبه الذي شغله وشغف به، لاسيما عندما وصل إلى مدينة (ستراتفورد أون أفون) مسقط رأس وليام شكسبير والقريبة من أكسفورد، حيث كان جبرا إبراهيم جبرا دائم السفر إلى تلك المدينة التي انطلقت منها إبداعات شكسبير في هاملت (Hamlet) والملك لير (King Lear) وغيرها. وقد شاءت الأقدار أن يترجم القسم الأكبر من مسرحياته فيما بعد.

استقر جبرا إبراهيم جبرا في العراق بعد أحداث عام 1948، التي انتهت بتقسيم فلسطين إلى منطقتين عربية ويهودية. لقد أصبحت بغداد هي الوطن الذي احتضنه واحتضن إبداعه ونتاجه الفني والثقافي والأدبي الثري. وقد أطلق اسم (شارع الأميرات) كعنوان لمذكراته التي دوّنها كتاريخ لحياته وسيرته الذاتية. وشارع الأميرات شارع معروف متميز بجماله الذي يقع في منطقة المنصور في كرخ بغداد، إذ اقترنت تسمية هذا الشارع باسم الأميرتين الهاشميتين (بديعة ابنة الملك علي) وشقيقة الوصي على العرش الأمير عبد الإله، والأميرة الثانية (جليلة ابنة الملك علي) وزوجة الشريف حازم. ويقول جبرا إبراهيم جبرا في ذكرياته حول تشييد داره في شارع الأميرات: "يسعدني أن أذكر أن الذي رسم أول تخطيط لداري كان المهندس قحطان عوني، أحد أصدقائي القدامى، وتعود علاقتي الحميمة به إلى أول الخمسينيات، قبل زواج أيّ منا، فضلاً عن اشتراكنا معاً في تأسيس (جماعة بغداد للفن الحديث) مع جواد سليم في ربيع عام 1951، لكن تخطيطه بقي بلا تنفيذ لتأخري في الشروع بالبناء، وإذا بالصديق المهندس رفعت الجادرجي في عام 1960 يقدم لي تخطيطاً آخر من تصميمه يختلف كل الاختلاف عن تخطيط قحطان عوني، غير أنني آثرت في النهاية أن أستفيد من التخطيطيين، وأحقق تخطيطاً ثالثاً من تصميمي، أقرب إلى ما أبغيه أنا من دار لي ولزوجتي وولدي الصغيرين، وضمن إمكاناتي المادية"⁽⁶⁾.

عمل جبرا إبراهيم جبرا في التدريس الجامعي، وقد كان يدرس اللغة والأدب الإنكليزي في كلية الآداب والعلوم وبدأ من العام الدراسي 1949-1950 التي خضعت فيما بعد إلى جامعة بغداد بعد تشكيلها رسمياً عام 1957. إذ بدأ بالتدريس في قسم اللغة الإنكليزية، وكان عميد الكلية آنذاك، المؤرخ الدكتور عبد العزيز الدوري، وكانت كلية الآداب والعلوم تضم العديد من أساتذة الجامعات العربية كالمؤرخ المصري الكبير الدكتور زكي محمد حسن أستاذ التاريخ الإسلامي، والعديد من الأساتذة العرب وغير العرب الزائرين في العراق. كما حضر جبرا إبراهيم جبرا في دار المعلمين العالية، (كلية التربية فيما بعد)، وكلية التحرير (كلية البنات فيما بعد)، وغيرها. وكانت لمواهبه في الرسم الأثر الكبير في تأسيس المراسم في العديد من تلك الكليات التي درس فيها ببغداد، إذ كان يشرف على مرسم كلية الآداب والعلوم، الذي أداره بعده الفنان العراقي الراحل حافظ الدروبي، وكان يشترك فيه عدد من الطلبة الذين اهتموا بالرسم مثل الشاعر مظفر النواب والفنانة حياة جميل حافظ وغيرهم كثير. كما ارتبط جبرا إبراهيم جبرا كشاعر حديث مع العديد من الشعراء الكبار آنذاك بعلاقات حميمة جمعتهم في العديد من محافل الثقافة العربية، كالسياب ومحمود درويش ولميعة عباس عمارة، والنقاد العراقيين كالدكتور علي جواد الطاهر والدكتور عناد غزوان والدكتور رشيد ياسين والدكتور حاتم الصكر وغيرهم. فقد كانت اللجان الثقافية في وزارة الثقافة العراقية لا تتألف من دون عضوية جبرا إبراهيم جبرا كأحد أهم أعضائها. بقي جبرا إبراهيم جبرا بعطائه الكبير فقد ألف وترجم العديد من الكتب النقدية ومنها (الأسطورة والرمز، و(الرحلة الثامنة)، و(تأملات في بنيان مرمري)، و(النار والجوهر) ومن رواياته (البحث عن وليد مسعود، صراخ في ليل طويل، والسفينة) ومن ترجماته الشكسبيرية (عطيل، ماكبث، الملك لير، والسوناتات) وفي التشكيل (جواد سليم ونصب الحرية، وجذور الفن العراقي) وغيرها. ينظر: الشكل (3).

ثانياً - الأسلوب الفني عند جبرا إبراهيم جبرا:

يشير (هيجل) إلى أن الأسلوب هو ما به تكتشف شخصية الذات التي تتظاهر في طريقة التعبير عن نفسها، أو هو نمط الأداء أو التنفيذ الذي يأخذ في حسبانته شروط المواد

المستخدمة وكذلك متطلبات التصميم والتنفيذ⁽⁷⁾. والأسلوب أيضاً يمثل شخصية صاحبه تمثيلاً صادقاً، من خلال تلك المنطلقات الفلسفية والفكرية التي أصبحت ملازمة للتفكير في إيجاد رؤيا جديدة لعرض النتاج أو المنجز الفني، فإن الوصول إلى تحديد أسلوب ذاتي في الرسم أو النحت أو العمارة وغيرها من الفنون البصرية المهمة، يصبح الفنان بعدئذ صاحب طريقة ترتيب وتشكيل لأشكاله وعناصره المتميزة التي تتبع شخصيته وأهواءه. ويمكن للمنتبع أن يجد ذلك في أساليب الفنانين العالميين، كلٌّ بحسب المدرسة الفنية التي برع بها وعمل بفكرها، إذ نجد أن التكعيبية قد تجسدت في أعمال الفنان بابلو بيكاسو (Pablo Ruiz Picasso)، والسريالية قد تجسدت في أعمال الفنان (سلفادور دالي Salvador Felipe Jacinto Dalí)، والتجريدية قد تجسدت في أسلوب عمل الفنان (بيت موندريان Piet Mondrian) وغيرهم. الأشكال (4) و(5) و(6).

وكذا الأمر في الفنون الأخرى كالنحت والخزف والعمارة وغيرها، فالمنتبع لأسلوب المعمارية العالمية (زها حديد) يستطيع أن يجد أسلوباً متفرداً بها يختلف عن باقي المعماريين المعاصرين. كما في الشكلين (7) و(8).

يشير جبرا إبراهيم جبرا إلى تأثيره بالفن الغربي ولاسيما أيام دراسته في المملكة المتحدة، إذ يقول: "من الفنانين الذين اكتشفتهم وافتنتت بهم، أيام التلمذة في جامعة كامبردج النحات البريطاني (أريك غل) رأيت قطعتين أو ثلاثاً من منحوتاته الكبيرة في لندن، ثم وقعت في يدي مجموعة من تخطيطاته العارية، ووجدت فيه تميزاً في النقاء، في الموقف، في الأسلوب، جعلني أبحث عن أعماله، أو صورها، وأبحث عن كتاباته بشغف. وقد أحسست أنه فنان يكاد يرفض أن ينتمي إلى زمانه، مصرّاً على مفاهيمه التي يستنبعها من رؤاه الخاصة بتجربته الداخلية وفلسفته الذاتية"⁽⁸⁾.

من خلال ما تقدم فقد كانت لجبرا إبراهيم جبرا الفنان الرسام المتفرد أسلوبه الخاص في إبراز الإمكانية الفنية العالية في الأداء والتنفيذ، فهو الفنان الممتلئ من تجارب الغرب، والقادم إلى العراق محملاً بتلك الثقافة الكبيرة التي أسهمت في بناء شخصيته الفنية الجديدة، ولاسيما أن الفنان جبرا إبراهيم جبرا كان أحد الفنانين الذين حضروا المعرض التأسيسي لجماعة بغداد للفن

الحديث، الذي أسسه الفنان العراقي الرائد جواد سليم، كان ذلك يوم 21 نيسان عام 1951، وهنا يستذكر جبرا إبراهيم جبرا تلك اللحظات قائلاً: "كان جواد سليم قد أصرّ، على الرغم من تمنعي بادئ الأمر لأنني لست رساماً محترفاً، ولأنني فلسطيني، على أن أسهم في ذلك المعرض بلوحاتي الزيتية، وجاء إلى شقتي ليأخذها بنفسه في سيارته الصغيرة، وعملنا كثيراً، ومعنا شاكر حسن آل سعيد وقحطان عوني وآخرون، لجعله معرضاً يلفت النظر. وكانت إحدى لوحاتي الست فيها تمثل ثلاث قرويات فلسطينيات، رسمتهن أيام 1948 الشاقة في بيت لحم، وقد جلسن أرضاً بأثوابهن الزرقاء والخضراء والحمراء حول سلة الفواكه، وهن أشبه بثلاث ربات للكبرياء والبقاء الأبدي، ثم أعدت العمل على اللوحة بالمزيد من كثافة الأصباغ بالفرشاة والسكين في أوائل عام 1951"⁽⁹⁾. الشكل (9).

لعلّ الانطلاقة الأولى والحقيقية لجبرا إبراهيم جبرا كانت بهذه اللوحة، التي تميزت بنوع من الاتساق والاندماج بالمكان، (الفنان/ الأرض - الوطن) ليتجلى الوطن بكل ما فيه من مفردات اجتماعية تناغمت مع رؤيته للواقع الافتراضي، الذي يعيشه الفنان في مكان آخر وبتقاليد ومراسيم اجتماعية تختلف الاختلاف كله عن بيئته ومكانه الحقيقي؛ رمز انتمائه وذكرياته الراسخة. فالسوق الشعبي آنذاك حاضر في مخيلة جبرا إبراهيم جبرا، من حيث طبيعة المكان وبساطة الهياكل، فضلاً عن أزياء النساء المحلية التي تعكس البيئة المحلية والاجتماعية لبيت لحم بشكل خاص، والحياة اليومية لفلسطين بشكل عام. أما القضية الجوهرية التي شكلت نقطة انعطاف مهمة في مسيرة جبرا إبراهيم جبرا الفنان والرسام الفلسطيني، الذي دخل إلى مجموعة تختلف عن بيئته ومعتقداته ونشأته الأولى، ليكون أحد الأعضاء المهمين والمؤسسين لجماعة بغداد للفن الحديث، بأسلوب فني خاص تميزت به هذه الجماعة الفنية العراقية المهمة، التي كانت منافسة في الفكر والتقنية لجماعة الرواد التي أسسها الفنان العراقي فائق حسن مع العديد من الفنانين العراقيين الرواد، ومنهم أكرم شكري، ونوري مصطفى بهجت، وخالد القصاب، وإسماعيل الشبخلي، وخالد الجادر، وحافظ الدروبي وغيرهم).

أما جماعة بغداد للفن الحديث، فقد ضمت العديد من الفنانين التشكيليين في الرسم والنحت التي أسسها الفنان جواد سليم، ومنهم شاعر حسن آل سعيد، وخالد الرحال، ومحمد غني حكمت، ونزيهة سليم، ونزار سليم، ورسول علوان، وعبد الرحمن الكيلاني، فضلاً عن جبرا إبراهيم جبرا). ويصف جبرا هذه الجماعة الفنية المتميزة قائلاً: "أعضاؤها مزيج عجيب من المحترفين والهواة، بقوة تعطيها اتجاهها ملهماً للكثيرين، دونما عنوة أو قسر"⁽¹⁰⁾، إذ عدّ جبرا تأسيس جماعة بغداد للفن الحديث بداية عصر الحداثة في الفن التشكيلي في العالم العربي والعراق تحديداً. فقد اقترنت السياسة كفكر في تلك المرحلة المهمة من تاريخ الوطن العربي لاسيما في خضم التحولات السياسية والإيديولوجية التي أثرت في طبيعة الحياة في المجتمع العربي بشكل عام، ولاسيما أن الحرب العالمية الثانية قد وضعت آثاراً كبيرة على طبيعة العلاقات السياسية ما بين الغرب والشرق، التي انعكست بالفعل على الحركة التشكيلية العربية آنذاك. ولعلّ اختيار جبرا إبراهيم جبرا التجربة الفنية والأسلوبية لجماعة بغداد للفن الحديث والإحساس بقيمتها الفكرية وحداثة الأسلوب، جعله مؤمناً بنهج هذه الجماعة التي قادها جواد سليم كتجربة أولى في اتخاذ طريقة وأسلوب جديد في الفن التشكيلي، لقد كانت تجريبية جواد سليم مثمرة، ليس لأنها مجرد بحث عام وبلا أساس فكري، إنما لأنها كانت من هذه التجريبية الشكلية، التكنيكية، خاضعة لتوجه فكري صارم ودقيق، وهذا ما أثبتته جواد سليم في إنجازه لنصب الحرية بهذا الشموخ، الذي أعاد الحلقة المقطوعة بالتراث العراقي القديم السومري والآشوري، وبالروح التي لا يمكن أن تكون إلا الجزء الواقعي للحضارة العربية⁽¹¹⁾. ويقول الناقد التشكيلي شوكت الربيعي حول تجربة جبرا إبراهيم جبرا: "ينتمي جبرا إبراهيم جبرا في تطلعاته خلال الرسم إلى جماعة بغداد للفن الحديث، إذ يتم التشديد على الارتباط العضوي بين ما يطرحه فكراً وبين ما يعبر عنه إطار العملية الإبداعية على معارج الفن التصويري في دائرة الهموم الشكلية، سعى جبرا إلى ممارسة ضغط على بحثه التقني فإحالاته إلى صياغة كمنت أهميتها في حساسيتها اللونية، وفي جمال مفردات المضمون، امرأة، طفل، رجل وامرأة، نافذة، هلالية البحر، وكان همه منصباً على استغلال سكونيتها لخدمة الحركة المضمرّة في عمومية المعمار ذاته، تنزع قيمة التعبير الفنية والفكرية لديه إلى الأشكال المبسطة الساعية إلى رؤية

تجريدية، وباستخدام سكين الرسم، هذا الاندماج التقني بين الذات والموضوع أغراه كثيراً، فدفعه لخوض تجربة لونية خالصة تلعب الحركة فيها دوراً بين عناصر الإيقاع المعماري للعمل الفني ذاته⁽¹²⁾. لقد تطابقت أوجه النظر فكرياً وأسلوباً وتقنية، ما بين رؤية جبرا إبراهيم جبرا الذاتية في الرسم، ورؤية جماعة بغداد للفن الحديث (جواد سليم ومجموعته)، من هنا تحققت التكاملية في التفكير ومحاولة الخروج عن المألوف، التي تتناسب تناسباً طردياً مع التطور التقني في إخراج اللوحة الحديثة. إذ إن استعمال السكين كتقنية للرسم لم تكن من التقنيات السائدة في اللوحة الحديثة آنذاك، إلا في أساليب بعض الفنانين العالميين، فقد استطاع جبرا أن يوجد لنفسه أسلوباً تقنياً متميزاً في معظم لوحاته، وكأن اللوحة مسطحة وبعدين فقط غاب عنها العمق والتجسيم أحياناً. والمتتبع لأعمال جبرا الأولى يستطيع أن يجد تلك الميزة واضحة في أسلوبه التقني، أما المرأة فقد كانت هي الحاضرة بشكل رئيس في معظم تلك الأعمال وبأشكال وهيئات متعدّدة تجريدية أحياناً ومختزلة التفاصيل في أحيان أخرى. فالمرأة هي الأم التي فارقتها منذ زمن، وهي العائلة والوطن، وهي الصديقة الحميمة والمقربة (الشاعرة لميعة عباس عمارة) التي كانت من أكثر المقربين إليه. وفي لوحات كثيرة لجأ الفنان إلى تجريد شكل المرأة في معظم لوحاته الزيتية، مع استعمال الألوان بصرامتها وقوتها البصرية. ينظر الشكلان: (10) و(11).

اهتم جبرا إبراهيم جبرا بإبراز دور شكل المرأة بزيها المحلي المعتاد، وكأنه أراد أن يوصل رسالة محددة نحو المتلقي مفادها أن المرأة هي الحياة وهي الروح والعطاء والحنان. وقد جسدها بأساليب مختلفة، إذ يلجأ أحياناً إلى تجسيدها بشكل فيه نوع من القصدية الفكرية في التأكيد على فكر معين. إذ يضع الرجل بين امرأتين في محاكاة غريبة، مع وجود نوع من التناقض ما بين المرأتين، إذ تبدو إحدهما عارية واقفة بابتهاج من خلال جسدها العاري، مع امرأة أخرى ترتدي الملابس ويقوم الرجل باحتواء المرأتين معاً مع انتشار أوجه عديدة، تنظر بنوع من الاستغراب والاستهجان في نظرهم نحو المستقبل غير المنظور والمحدد المعالم. وتجدر الإشارة إلى أن الفنان جبرا إبراهيم جبرا رسم هذه اللوحة عام 1947، وكأنه تمرد على الحقيقة أحياناً، بل إنه قد يخاطب التقاليد والعادات الاجتماعية المحلية التي قد تخضع المرأة إلى ضغوطها التي

يحاول هو بوصفه فناناً صاحب نظرة تقدمية إبراز مفاتها كنوع من التمرد على تلك التقاليد، لتسير نحو ركب الحرية والإيمان بحقوق الإنسان والمرأة بشكل خاص. كما وضع المرأة في موقع آخر ومكان آخر فهي الأم التي تحتضن الطفل، وتربي الأبناء وهي نواة تشكيل الأسرة والمجتمع. الشكل (12).

كما جعل جبرا إبراهيم جبرا من خلال رمزية المرأة أيقونة للحياة، وقد تكون تلك المحبة والشغف جزءا من الحنين إلى الوطن .. إلى الأم .. الحبيبة... إلى فلسطين، وهي العائلة أيضا. كما في الشكلين (13) و(14).

لم يستمر جبرا إبراهيم جبرا في الحفاظ على أسلوبه الأربعيني أو الخمسيني، بل إنه بدأ باتخاذ أسلوب أكثر تعبيرية في مكونات عناصر اللوحة الفنية من جهة، والتقنية من جهة أخرى. وقد برزت تلك التعبيرية في معظم اللوحات التي رسمها في مرحلة متقدمة من حياته، فقد رسم نفسه بأسلوبه التعبيري الجديد، ورسم عائلته في لوحته الشهيرة (الفنان وعائلته) بالأسلوب ذاته. كما في الشكلين (15) و(16).

مثلت أعمال الفنان جبرا إبراهيم جبرا المتقدمة، نوعاً من التحول في ميدان الإنشاء والاختزال الشكلي واللوني في طبيعة التكوين وتوزيع المساحات اللونية، وبساطة التكوين مع دراسة جمالية للضوء والظل في اللوحة، كما اتسمت معظم تلك الأعمال، بأنها ذات طبيعة ساكنة وكأنها تمثل زمناً متوقفاً في لحظة معينة، وكعملية متشابهة لفعل التقاط الصورة الفوتوغرافية، وزمنها التي تعطي للحظة خصائصها البصرية الساكنة. وكان جبرا قد تأثر بالرمزية كفكر التي أولها إلى نوع من الاختزال الشكلي واللوني مع غياب بعض الملامح الحقيقية للشكل، كاختزاله لجسم المرأة مع إبراز مفاتن جسمها كنوع من الإثارة والاستمتاع. وقد استمر أسلوبه هذا في العديد من اللوحات التي جسد فيها مواضيع المرأة والحياة الاجتماعية، كما لجأ إلى التجريد التام لملامح الشكل في العديد من اللوحات التي رسمها منذ بدايات تجربته الفنية. وتجدد الإشارة إلى أن الفنان قد تأثر بالبيئة البغدادية المحلية التي عاش فيها معظم ما

تبقى من حياته، ولاسيما بعد أن كان أحد المؤسسين المهمين لجماعة بغداد للفن الحديث، كما تأثر بأسلوب وفكر هذه الجماعة، التي آمن بمنطلقاتها الفكرية والجمالية، ويمكن للمتابع لحركته الفنية أن يجد سمات خاصة للمرأة في لوحاته البغدادية، من خلال الزي وطبيعة التكوين والشكل واللون وطبيعة المرأة البغدادية. بل رسم بعض الأمكنة البغدادية المشهورة كسوق الصفاير، وبعض الأماكن البغدادية الأخرى، الأشكال (17) و(18) و(19) و(20).

ومن خلال ما تقدم يمكننا تحديد أهم مميزات الفنان جبرا إبراهيم جبرا الفنية، وهذا كما يأتي:

- 1- اعتماد التسطیح في بنائية اللوحة التشكيلية.
- 2- الاختزال الشكلي واللوني في التكوين العام للوحة، وهي جزء من أسلوب الفنان جبرا لاسيما بعد تأثره بفن جماعة بغداد للفن الحديث، إذ يبدو التأثير واضحاً في خمسينيات القرن الماضي.
- 3- تعلق الفنان جبرا بالمرأة وأهميتها بحسب رؤيته الفنية لمعانيها ودلالاتها الإنسانية في اللوحة الحديثة.
- 4- أثرت البيئة بمختلف عواملها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في منجز جبرا إبراهيم جبرا الفني.
- 5- لم يغادر الفنان جبرا إبراهيم جبرا المحيط العربي بسماته وخصوصيته وهويته الوطنية التي انعكست في معظم أعماله الفنية.
- 6- أسهمت الثقافة العالية التي اعتمدها جبرا إبراهيم جبرا، لاسيما في دراساته الأولية والعليا ما بين الشرق والغرب واطلاعه على معظم الحركات الفنية والمدارس الحديثة في الفن في تطور أسلوبه الفني والجمالي في طرح الأفكار والتأثير في المتلقي.

ثالثاً- جبرا إبراهيم جبرا والفن الحديث:

لا شك في أن الفنان جبرا إبراهيم جبرا، الذي أصبح أحد أهم مؤسسي جماعة بغداد للفن الحديث مع جواد سليم والعديد من الفنانين العراقيين المهمين، قد أثرى كثيراً الساحة الثقافية في العراق، بوصفه فناً تشكيمياً من جهة، وناقداً تشكيمياً من جهة أخرى؛ فقد ترأس فيما بعد رابطة نقاد الفن في العراق التي بادرت إليها وزارة الثقافة العراقية، وعقدت أول حلقة دراسية لقضايا النقد التشكيلي في العراق، وكانت تتضمن إلى جانب رئيسها الناقد محمد الجزائري سكرتيراً، وشوكت الربيعي مقررًا، وجميل حمودي، ونوري الراوي، وسهيل سامي نادر، أعضاءً فيها. وقد قدم الناقد والفنان جبرا إبراهيم جبرا رئيس الرابطة محاضرة قيمة آنذاك بعنوان (النقد والموقف من الفن)⁽¹³⁾. كما قدم الكثير من الدراسات النقدية حول التشكيل العربي والعراقي بشكل خاص، ونشر العديد من الدراسات حول تجارب الفنانين التشكيليين العرب، فقد ألّف عدّة كتب مهمة في هذا الميدان وهي: جواد سليم ونصب الحرية (1974)، وجذور الفن العراقي (1980)، و(الفن والحلم والفعل) (1986)، كما يذكر الفنان العراقي والطبيب الدكتور نوري مصطفى بجمت في مذكراته أن جبرا إبراهيم جبرا كان يحضر منذ نهايات عام 1991 إلى جلسات صباح الخميس التي كانت متخصصة بالشأن الثقافي التي كانت تعقد في بيت أحد المثقفين العراقيين آنذاك، وكان يحضرها أيضاً الفنان التشكيلي الدكتور خالد القصاب، والمعماري الدكتور قحطان المدفعي والدكتور سالم الدمولوجي وغيرهم⁽¹⁴⁾.

تطرق جبرا إبراهيم جبرا في العديد من دراساته النقدية، إلى المدارس الفنية المهمة كالسريالية، ومن أهم آرائه في منطلقاتها: "إن السرياليين جعلوا منطلقهم من الغموض واللافهم والسخف عن قصد، ولكنهم اتجهوا في كثير من الجهد نحو تكوين نظرة جديدة إلى الحياة، تكون الحرية بأوسع معانيها حافظها الأول، وقد قالوا: ليست السريالية مدرسة من مدارس الأدب أو أسلوباً من أساليب النقد، إنها حالة ذهنية، فالخيال وحده في عصرنا هذا، يستطيع أن يستعيد للبشرية المهتدة فكرة الحرية. فبينما كانت أكثر الحركات الفنية تعنى بإيجاد أسلوب جديد في فن الرسم، كالتكعيبية والوحشية، والتجريدية، والمستقبلية، قام نفر من الشعراء بحركة السريالية لجعلها فلسفة في الحياة، وقد قال أحدهم إنها تأويل جديد للحياة، وانفجار من أشد

انفجارات الوعي الإنساني في الحقبة الأخيرة منذ هرقلطس Heraclitus وغاليليو Galileo⁽¹⁵⁾. لقد حدّد جبرا إبراهيم جبرا من خلال تحليله الدقيق، التأويل الحقيقي للسريالية كأسلوب ومدرسة مهمة من مدارس الفن الحديث، التي أظهرت العديد من الإمكانيات الخيالية والتصورية، في التعبير عن الواقع الافتراضي بالألوان والأشكال والتكوينات الخيالية الخارجة عن حدود الواقع وتجسيده. ولم يذهب جبرا في كتاباته وفي لوحاته نحو السريالية، ليكون سريالياً، ولكن من الواضح أن نافذة السرياليين المنفتحة على هذا المدى من الحرية، هي التي كانت تستهويه، وفي فضائها يجد ما هو باحث عنه وداع له⁽¹⁶⁾. وقد عدّ السرياليون كما يرى جبرا، ربما أكثر من غيرهم، موجهين نحو الأسطورة، موجهين نحو خلق الأساطير، الأساطير الجديدة، يخلقها الإنسان للإنسان، لاسيما عن الحالة الإنسانية⁽¹⁷⁾.

شُغف جبرا إبراهيم جبرا بالفن الجديد أو الفن المبتكر، وعلاقته بالخصوصية والهوية، كما تطرّق في العديد من الدراسات النقدية إلى قدرة الفنان المبدع في استثمار مكونات الهوية والخصوصية، والتراث وانعكاساتها في الفن الحديث والمعاصر، من هنا درس جبرا تلك المعطيات المهمة للهوية والخصوصية في الفن الجديد والإبداعي، من خلال الرمز الحضاري والتاريخي الذي يعطي للفن سمة حضارية معاصرة. يقول: "وجدت أنّ أحد الأمثلة المهمة للمستقبلية الغربية، في الفن المعماري، وهو المركز الثقافي الضخم في كاراكاس عاصمة فنزويلا، يستقي شكله النهائي وتجربته الحسية من زقورات العراق القديم، وهو مع ذلك يجمع في تفاصيله نتاج عبقریات فنانين عديدين، هم الذين يجعلون للفن الفنزويلي خصوصيته، دون أن يعزلوه عن سياق الإبداع الإنساني. المبدع إذن هو الذي ينبغي علينا أن نتأمل أعماله، لنستخلص منها ماهية الفن العربي اليوم، نحن لا نعرّبه أو نعرّب فنه مسبقاً، بل هو الذي سيقدر بكونه عربياً مقرباً من خصوصيته، قد نقول إن عمل الفنان العربي ما زال قاصراً، في الأغلب عن تجربته الحقيقية، أي إن تجربته أكبر من عمله، أو أن طموحه أبعد من انجازه"⁽¹⁸⁾.

لقد أكد جبرا في معظم طروحاته النقدية في التشكيل العربي على ارتباط الفنان العربي بالواقع السياسي، وتحولاته التي طرأت على المجتمع العربي لاسيما خضوع أغلب الدول العربية إلى الاحتلالات الأجنبية وسلب إرادتها والتدخل في شؤونها الداخلية، والتأثير في ثقافات تلك

الدول لاسيما فلسطين، التي تعد الموطن الرئيس لجبرا والنضال من أجل الحرية، فالفنان العربي هو فنان ثوري متمرد، كما يشير جبرا في العديد من الأحكام النقدية على النتاج الفني منذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وقد كتب عن فن ناجي العلي رسام الكاريكاتير الذي اغتاله الصهاينة، إذ قدم عرضاً نقدياً لمسيرته الفنية؛ إذ يصف استفزازه المتلقي / العدو، بشكل ساخر مضحك يشوبه البكاء في الوقت ذاته، إنه إحساس بقوة المبدأ في التحرير والغد الحرّ الذي يناضل من أجله العلي وغيره من الفنانين العرب، لاسيما الفلسطينيين منهم. ويعطي جبرا رأيه النقدي في أعمال الفنان الفلسطيني حسن أبو الهيجاء، التي أثارت مشاعره الملتهبة حينها لبلاده، إذ يقول: "يدرك المشاهد عند أول وهلة، أن الموضوع الفلسطيني هو الإطار والمحور في كل رؤية، ويدرك أن ثمة في موضوع اللوحات ما يصوّر (فلسطيني الداخل) إزاء (فلسطيني الخارج)، وعندما تشرع الرموز بتسليم معانيها، هناك (الداخل) اليقظ، الصامد، المرتقب لحظة الانفجار، وهو الذي يشد إليه (الخارج)، المههدد دوماً بالانزياح أو الغياب، ويمد بطاقته ويحافظ على ديمومته"⁽¹⁹⁾. نستطيع الإحساس بقوة المشاعر المتدفقة في تأويلات جبرا إبراهيم جبرا للخطاب التشكيلي لأبي الهيجاء، التي أثارتها بقوة وجعلته كفلسطيني من الخارج كيف يتفاعل مع مكونات اللوحة بكل ما فيها من قيم البطولة والدفاع عن الأرض، والجهاد في سبيل تحرير وطنه المسلوب.

لقد كانت للتجربة الفنية الطويلة التي أسهم بها جبرا إبراهيم جبرا في العراق، منذ نهايات الأربعينيات حتى وفاته بداية التسعينيات، أثرها الكبير في دراسة الفن العراقي المعاصر، ودراسة العديد من التجارب الفنية الغنية التي قدمها الفن العراقي المعاصر، في أكبر مجموعتين مهمين هما جماعة الرواد التي أسسها الفنان العراقي فائق حسن، وجماعة بغداد للفن الحديث التي أسسها الفنان العراقي جواد سليم التي أسهم جبرا إبراهيم جبرا بتأسيسها. ويصف جبرا الفنان العراقي جواد سليم متحدثاً في مقارنته بالفنان العراقي فائق حسن، "بأن الفنان الوحيد الذي تمتع بشعبية أثناء حياته، هو الرسام النحات جواد سليم، الذي توفي عام 1961، عن واحدٍ وأربعين عاماً، لم يكن جواد غزير الإنتاج كزميله فائق حسن، غير أنه كان أشد منه وهجاً برؤياه، وأكثر منه حرارة في البحث عن أسلوب يخدم تلك الرؤيا. وهذا ما جعله لا في موضع

الزعامة فحسب من الحركة الحديثة، بل في موضع الملهم الأكبر لها، فليس هناك فنان آخر ترك بمفرده أثراً عميقاً كالذي تركه جواد سليم في الفن العراقي⁽²⁰⁾. أعجب جبرا بفن جواد سليم في الرسم والنحت، ومن شدة إعجابه كتب عنه دراسة مهمة وغنية عن جهوده الفنية الكبيرة، وفكره العميق في ابتكار فنه وتميزه سواء في النحت أو في الرسم. وفي كتابه (جواد سليم ونصب الحرية) استعرض جبرا المسيرة الإبداعية الكبيرة لهذا الفنان المتميز، لاسيما نصب الحرية الذي تطرق إليها جبرا بالتفصيل من خلال تحليل الرموز الشاخصة في هذا النصب العريق، التي كانت تتألف من أربعة عشر جزءاً مختلفاً ومتنوعاً ما بين رموز المرأة والنخلة والجندي ومظاهرات الطلبة والفلاح والعامل والثور وغيرها، التي لكل واحدة منها دلالاتها الفكرية والوطنية والحضارية. ويقول جبرا حول تجربته في عمله الكبير نصب الحرية: "هذه التجربة الحية أبداً في ذهن جواد سليم، سواء أكانت تجربة الحب، أو الألم، أو الغضب، أو الشفقة، والتي يحاول التعبير عنها رسماً ونحتاً مرة بعد أخرى عبر السنين، وهي التي في النهاية ملك زمامها وحوّلها بفعل خلاق لا تردد فيه إلى منحوتاته الأخيرة في نصب الحرية، ذروة فن جواد سليم، وخلاصة أسلوبه. كل قطعة تقريباً في هذا النصب لها سوابق عديدة، عمل الفنان فكرة فيها وجرب أداءها على هذا النحو أو ذلك، في فترات متلاحقة من حياته، حتى اكتملت في رؤياه، واتخذت شكلها الأخير، واحتواها في البرونز إلى الأبد"⁽²¹⁾. لقد عدّ جبرا إبراهيم جبرا التجربة الغنية لجواد سليم من التجارب التي يقف أمامها الناقد، بكل تأنّ وتحليل وتأويل لمكونات نصوصه البصرية في النحت والرسم الذي حوله جواد سليم إلى فكر ثوري يؤمن بحرية الإنسان وحقوقه، في النضال من أجلها والخلاص من الديكتاتورية. لقد حدد جبرا من خلال دراسته لفن جماعة بغداد للفن الحديث التي آمن هو نفسه بأهدافها ومنطلقاتها الفكرية، وكان أحد أهم مؤسسيها. إذ اتجهت تلك المنطلقات نحو تصوير حياة المجتمع في شكل جديد، يحدده إدراكهم وملاحظاتهم لحياة هذا البلد، الذي ازدهرت فيه حضارات كثيرة واندثرت ثم ازدهرت من جديد. إنهم لا يغفلون عن ارتباطهم الفكري والأسلوبي بالتطور الفني السائد في العالم، ولكنهم في الوقت نفسه ييغون خلق أشكال تضي على الفن العراقي طابعاً خاصاً وشخصية متميزة⁽²²⁾. الشكل (21).

لقد مثلت (جماعة بغداد للفن الحديث) بؤرة التفجر للحوار مع الآخر، من دون أن يستطيع ابتلاع الهوية بالمعنى الذي كان يشدد عليها زعماء الجماعة، وليست هذه الهوية سوى تراكمات الميراث الحضاري في أبعاده الإنسانية والاجتماعية والأسطورية، منظوراً لها من زاوية الانفتاح على حضارة الآخر أيضاً⁽²³⁾. وهذا ما يتطابق مع نظرة (هربرت ماركوز) في نظرتة للفن ووظيفته المجتمعية، وعلاقته بالهوية والمكان، إذ يرى أن الفن لا ينفصل عن أصوله، فهو يشهد على الحدود الذاتية للحرية والرضى، على عمق مرسى الإنسان في الطبيعة، إن الفن لشاهد بكل مثاليته على حقيقة المادية الجدلية، وإنه بحكم الحقائق عبر التاريخية والشمولية التي يقترحها، يستحث وعياً ما هو بوعي طبقة محددة فحسب، بل وعي الكائنات البشرية من حيث إنها تنتمي إلى النوع وتطور ملكاتها الحافزة للحياة⁽²⁴⁾.

أما الفنان العراقي فائق حسن مؤسس جماعة الرواد التي كانت تضم كبار الرسامين والنحاتين العراقيين منذ بدايات الأربعينيات، فقد وصفه جبرا في أن شأنه في ذلك شأن صديقه جواد سليم، يبحث عن أسلوب عراقي متميز، راح منذ بداياته يطلبه من خلال تأكيده الجوهر الشعبي لمواضيعه، وتكعييبته في الخمسينيات، كان مزيجاً من أشكال عربية مستقاة في الكثير منها من يحيى الواسطي (رسام المنمنمات البغدادي الذي عاش في القرن الثالث عشر) وأشكال أوروبية كانت سائدة منذ أوائل هذا القرن، غير أن الفلاحين الذين في لوحاته والأعراب وصيادي الأسماك، وهذه ثيمات متواترة لديه، لا ينتمون إلا إلى مياه دجلة والفرات⁽²⁵⁾. وكتب جبرا إبراهيم جبرا عن خلاصة تجارب فائق حسن، وإسماعيل الشبخلي، وكاظم حيدر والكثير من الفنانين، لاسيما الرسامين الرواد. ويقول في الكثير من صور فرج عبو إنه يسخر الأشكال النسائية والرجالية وطرز الثياب العراقية وحتى الحيوانات، لغرض زخرفي بحت، وقد تكون الفكرة لديه في الأصل مستقاة من رسوم الكتب العربية القديمة، غير أن في الوقفات حدة أشد وطراوة أقل، مع تكرارات مدروسة في الخطوط والألوان، يوجد بها إيقاعاً صريحاً مانعاً، لعل زخرفياته هذه أجمل ما رسم، لأنه يقيها خاضعة للتحكم والتنسيق من دون التورط في قول ما لا يحتاج إلى قول⁽²⁶⁾. نستطيع أن نجد التحليل والقراءة النقدية البارعة لجبرا إبراهيم جبرا لمكونات اللوحة عند فرج عبو، الذي استطاع أن يحدده في أسلوب متميز من

خلال التكوينات الزخرفية والألوان والأشكال المتناسقة مع بعضها البعض في إطار فني جميل. الشكل (22).

تطرق الناقد جبرا إبراهيم جبرا إلى ما سماه فن الأطباء، وقد كتب العديد من الدراسات النقدية حول هذا الفن المطعم ما بين الطب والرسم، إذ تطرق إلى أعمال الفنانين الرسامين من الأطباء، وكيفية تعاملهم مع الرسم ومكوناته وعناصره الجمالية والفنية والتقنية. فقد كتب الكثير عن تجربة الفنان العراقي الدكتور خالد القصاب، وهو أحد الأطباء الجراحين الكبار في العراق الذي يعد أحد أهم رواد الرسم العراقي المعاصر، فقد انتمى إلى جماعة الرواد التي أسسها الفنان العراقي فائق حسن، وكان مع زميله الفنان الدكتور نوري مصطفى بهجت، وهو أخصائي بتقويم العظام وأحد أهم الفنانين الرواد أيضاً. تحدث جبرا عن الشخصية الفنية لخالد القصاب قائلاً: "الغريب واللافت أن هذا الجراح الأبرع، الذي يعرف من التشريح الإنساني ما لا يعرفه أي فنان مهما انخرط في رسم الجسم البشري، انصرف في رسمه نحو تشريح الطبيعة دون الإنسان، حتى لتكاد رسومه، إلا فيما ندر تخلو من الناس، إنه يضعنا بين الأشجار والمباني، على ضفاف الأنهر، ليقدمها لنا خالصة صافية، خطوطاً وكتلاً وألواناً، فتعيدنا في النهاية، إلى وعينا الإنساني وروابطنا العميقة بالمكان، بالأرض، بالحفرة، بالمياه"⁽²⁷⁾. وفي حديثه عن الفنان الدكتور علاء بشير الطيب الجراح، الذي عرف بسريالية لوحاته التي احتوت على العديد من الأيقونات التي تحاكي حياة الإنسان ومشاعره وأحاسيسه. وقد كتب جبرا إبراهيم جبرا في معرض دراسته النقدية للوحة علاء بشير، التي يضع فيها طائر الغراب محلاً لتلك اللوحة المهمة، إذ يقول في العديد من لوحات الدكتور علاء بشير، يأتي الطير الآخر هو نقيض البلبل، الغراب، المذكر الإنسان بالخراب والموت، ذلك الطير الذي تعيه ذاكرة البشر صنواً غريباً للبلبل، ليقابل شدة البلبل الأبدي بنعيه الأبدي، ولئن يكن نوح قد أرسل الغراب بعد الطوفان من فلكه، ولم يعد إليه فلان الغراب شغل بمأساة البشر الذين قضى الطوفان عليهم، وراحت أجسادهم الطافية على المياه تقابل ظلم الطبيعة باحتجاجها الصامت، الذي لم تنطق به إلا حناجر الغربان، وهي تنعق في وجه السماء بين التحليق والحط، وبين جثة

وجتة، فالغراب بدوره على طريقته، يكتف تجرمة الإنسان للعشق، واللوعة هذه التجربة التي تصل اللحظة الآنية بلحظات الأزل⁽²⁸⁾. لقد وضع جبرا إبراهيم جبرا تأويلاً تداخلاً، ما بين العقائد والتداول الشعبي له، التي تظهر الغراب كطائر يثير الاشمئزاز والتوجس، لاسيما عند سماع نعيقه المزعج، فضلاً عن تناوله جثث ورمم الحيوانات الميتة المنتشرة أحياناً في الغابات والطرق، إذ يقارن بينه وبين البلبل كطائر يرمز للجمال والرقّة، محاولاً أن يجد نوعاً من المعادل الموضوعي في تحليل وتأويل لوحات الدكتور علاء بشير، التي يجعل فيها من الغراب شأنًا يثير الجدل في لوحته الفنية. الشكل (23).

ولجبرا إبراهيم جبرا آراؤه النقدية في فن النحت، الذي يعد مشهداً مهماً من مشاهد الفن التشكيلي العربي المعاصر، ومن خلال تماسه بجماعة بغداد للفن الحديث، فقد جمعته بنحات شاب هو محمد غني حكمت تلميذ جواد سليم، الذي أصبحت تماثيله ونصبه مشيدة في ساحات وشوارع العديد من العواصم العربية. واستمرت تلك العلاقة الفنية والإبداعية التي جمعت كلاً من حكمت وجبرا، لسنين طوال امتدت لأكثر من خمسة عقود. يصوره جبرا إبراهيم جبرا في معظم كتاباته عن فن محمد غني حكمت، بأنه السومري والآشوري والبابلي الذي نحت أول التماثيل في فجر الحضارة، إذ يقول: "محمد غني حكمت النحات البغدادي المعاصر، هو الذي برز في صنع منحوتات صغيرة الحجم نسبياً، ومع أنه قد صنع عدة منحوتات جميلة بحجم الإنسان، وكثيراً ما يتحدث عن صنع تماثيل بشكل أشد لفتاً للنظر، فإنه ما زال سيد أسلوب يعود بجذوره إلى سومر، أما الرهافة ولطف التوازن، ودقة التشكيل، فكلها معاصرة، وأما الوحي ونوع التأثير فكلاهما مستقى على الأغلب من منهل قديم، وهذا بالنسبة إليه كما يقول، أمر لامناص منه ومرغوب فيه. لقد أنهى الفنان تلمذته (في إشارة إلى أستاذه الفنان جواد سليم) وأجاد، واستعاد طرقاتاً من النحت العراقي دون أية عبودية مدرسية، والمؤثرات التي اجتمعت فيه من بلده، من أوروبا، من الكنيسة، من المسجد، زادت من نفاذ رؤيته وإقامته على قدميه، وما البقية إلا خلق وأصالة"⁽²⁹⁾. الشكل (24).

من خلال ما تقدم فقد شكلت التجربة الفنية الكبيرة للفنان التشكيلي والناقد الأدبي العربي جبرا إبراهيم، ولأكثر من سبعة عقود، تجربة رائدة نظراً لما يمتلكه جبرا إبراهيم جبرا من مواهب، جعلته يتميز بشكل كبير عن أقرانه من الكتاب والنقاد والفنانين، إذ شكلت الثقافة الشاملة التي تمتع بها، لاسيما من خلال اطلاعه على الثقافة الغربية التي نهل منها الكثير من المعارف والعلوم، ودراسته للغة الإنكليزية التي مكنته من الاطلاع على الآداب العالمية من شعر ورواية وقصة ونقد وتشكيل. إنه الفنان صاحب التجربة الرائدة في الرسم منذ بدايات عام 1947م في القدس، ليصبح بعدئذ أحد أهم مؤسسي جماعة بغداد للفن الحديث بداية الخمسينيات من القرن الماضي. لقد ترك جبرا إبراهيم جبرا آثاراً لا تعد ولا تحصى، من الكتب والدراسات النقدية والترجمة والنقد التشكيلي، وآلاف المقالات والدراسات في الحقول الثقافية المختلفة. ولا تكفي عدة صفحات أن تحيط بهذه الجوانب الإبداعية، إلا جزءاً يسيراً من تلك الإضاءات، التي تجعلنا ندرك الجهد الكبير والثري لجبرا، في ترسيخ الثقافة العربية المعاصرة على الرغم من تحولاتها اليوم، التي غدت بفعل أفكار العولمة والعالمية وتياراتها من أخطر أمراض الفتك بالثقافة العربية الأصيلة، وهويتها وخصوصيتها الوطنية التي تؤمن بالعمل الخلاق المنتمي إلى قيم العروبة والأصالة الفكرية التي سار عليها جبرا إبراهيم جبرا.

الهوامش:

- 1- هياس، خليل شكري: سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات، اتحاد الأدباء والكتاب العرب، دمشق، 2001، ص11.
- 2- جبرا، جبرا إبراهيم: شارع الأميرات فصول من سيرة ذاتية، دار الآداب، بيروت، ط1، 2007، ص20.
- 3- جبرا، جبرا إبراهيم: الرحلة الثامنة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1967، ص157.
- 4- المصدر نفسه، ص159.
- 5- جبرا : شارع الأميرات، المصدر السابق، ص25.

- 6- المصدر نفسه، ص93.
- 7- هيجل: فكرة الجمال، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1978، ص458.
- 8 - جبرا ، جبرا إبراهيم: الفن والحلم والفعل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص293.
- 9- جبرا: شارع الأميرات، المصدر السابق، 129.
- 10 - جبرا، جبرا إبراهيم: جذور الفن العراقي، دار واسط، بغداد، 1986، ص20.
- 11- عادل كامل: الحركة التشكيلية المعاصرة في العراق مرحلة الرواد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، 1980، ص42.
- 12- الربيعي، شوكت: الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص72.
- 13- الراوي، نوري: تأملات في الفن العراقي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 1999، ص188.
- 14- بهجت، نوري مصطفى: محطات بين الطب والفن، تحرير معتز عناد غزوان، دائرة العلاقات الثقافية، وزارة الثقافة، بغداد، 2015، ص281.
- 15- جبرا: الرحلة الثامنة، المصدر السابق، ص178.
- 16- جبرا، جبرا إبراهيم: الفن والفنان كتابات في النقد التشكيلي، اختارها إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 2000، ص11.
- 17 - جبرا، جبرا إبراهيم: الأسطورة والرمز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1980، ص50.
- 18- جبرا: الفن والفنان، المصدر السابق، ص26.
- 19 - المصدر نفسه، ص179.
- 20 - جبرا: جذور الفن العراقي، المصدر السابق، ص19.

- 21- جبرا، جبرا إبراهيم: جواد سليم ونصب الحرية دراسة في آثاره وآرائه، وزارة الإعلام، بغداد، 1974م، ص72.
- 22- جبرا: الرحلة الثامنة، المصدر السابق، ص199.
- 23- عاصم عبد الأمير: الرسم العراقي حداثة تكييف، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2004، ص102.
- 24- ماركوز، هربرت: البعد الجمالي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص42.
- 25- جبرا: جذور الفن العراقي، المصدر السابق، ص14.
- 26- عادل كامل: الحركة التشكيلية المعاصرة، المصدر السابق، ص163.
- 27- جبرا: الفن والفنان، المصدر السابق، ص151.
- 28- المصدر نفسه، ص129.
- 29- جبرا: الرحلة الثامنة، المصدر السابق، ص236، 240.

ملحق الصور:



الشكل (1) مسجد النبي داود



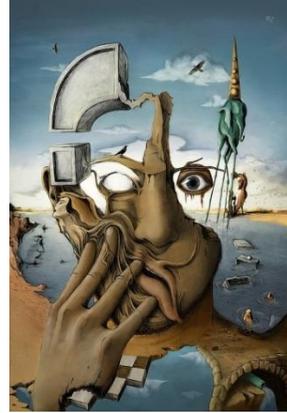
الشكل (2) القدس القديمة



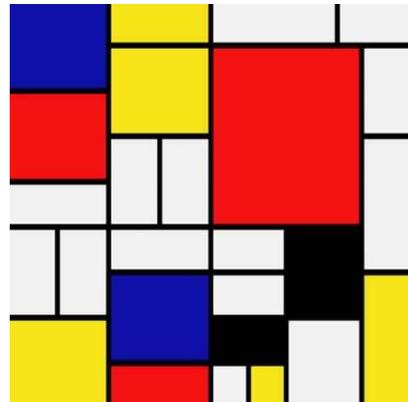
الشكل (3) جبرا إبراهيم جبرا، عناد غزوان، رشيد ياسين، سلمان الواسطي، طراد الكبيسي، كامل العامري، حاتم الصكر



الشكل (4) بيكاسو



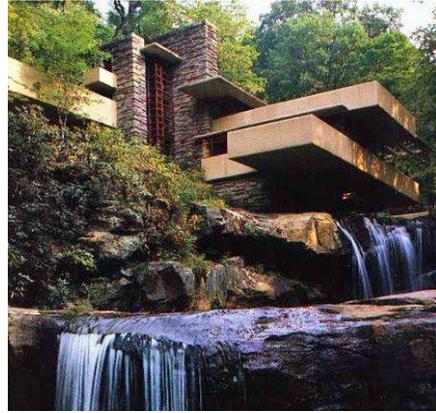
الشكل (5) دالي



الشكل (6) موندريان



الشكل (7) عمارة زها حديد



الشكل (8) عمارة فرانك لويد رايت



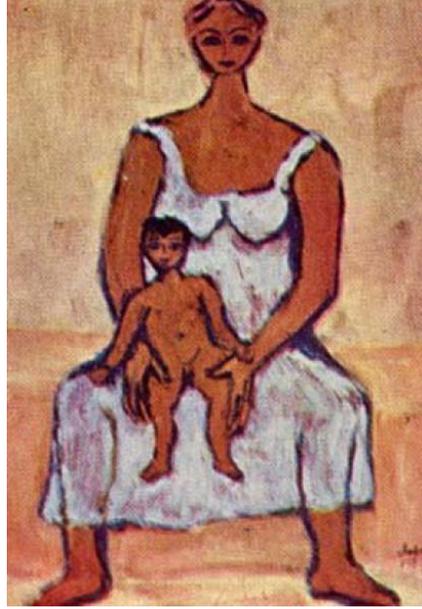
الشكل (9) لوحة لجبرا إبراهيم جبرا تمثل فلاحات فلسطينيات.



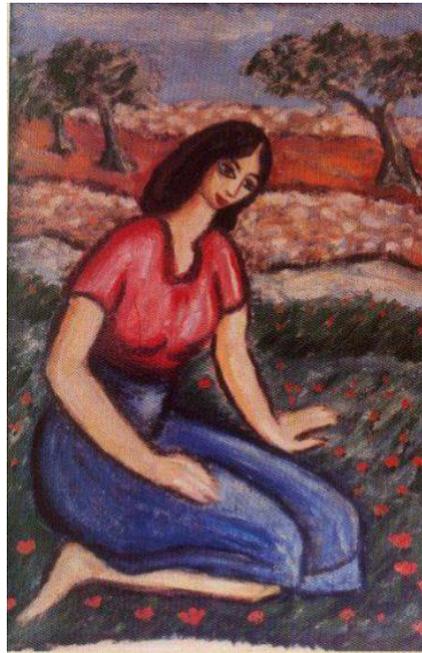
الشكل (10) تخطيط لوجه السيدة: لميعة العسكري زوجة الفنان.



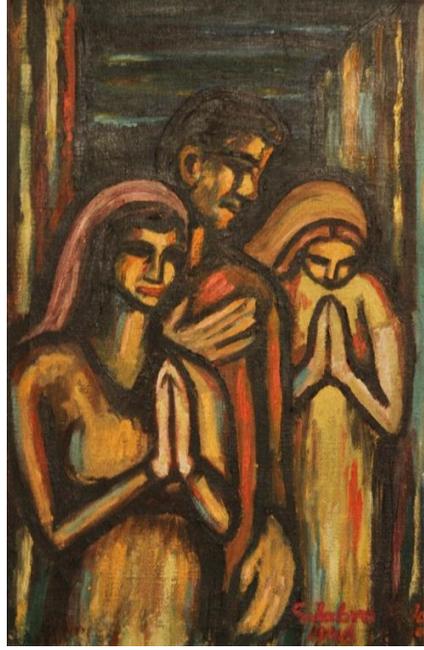
الشكل (11) وجه امرأة



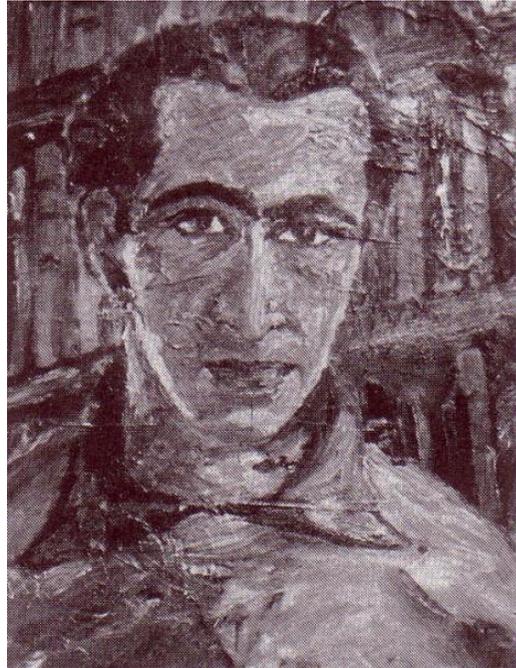
الشكل (12) لوحة تمثل الأمومة، كما يتصوّرها جبرا.



الشكل (13) امرأة فوق العشب



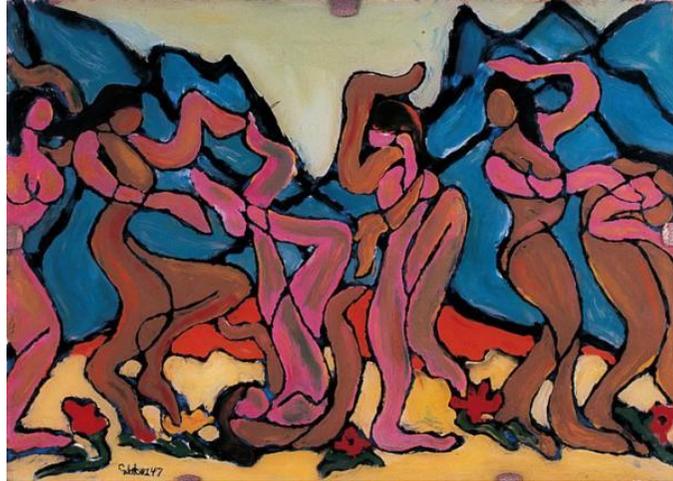
الشكل (14) المرأة والتمسك بالدين



الشكل (15) بورتريه شخصي للفنان



الشكل (16) الفنان وعائلته



الشكل (17) تجريد المرأة



الشكل (18) رجل وامرأة



الشكل (19) امرأة بغدادية



الشكل (20) سوق الصفافير



الشكل (21) جواد سليم ونصب الحرية



الشكل (22) لوحة لفرج عبو



الشكل (23) لوحة الغراب لعلاء بشير



الشكل (24) الفنان والناقد جبرا إبراهيم جبرا وفنان من الهند والفنان محمد غني حكمت